الفصل الثاني
التقارب والتباعد المخرجى ونظرية الفصاحة

obeikandl.com

ترتبط كلمة فصاحة عند البلاغيين بمعناها اللغوى وهو الخلوص والنقاء يقال : يومٌ فصيح أى لا غيم فيه ، وأفصح الصبح إذا ظهر ضوءه وبان ، وتحت الرغوة اللبن الفصيح " وتعنى كلمة الفصاحة عند البلاغيين معنى يقترب من معناها اللغوى للمصدر المشتقة منه فكما أن الفصح يعنى خلوص الشيء مما يشوبه كذلك تعنى الكلمة الفصيحة الخلوص مما يشوبها " [1].

ويعرف السيوطى الفصاحة فى المفرد بقوله : " الفصاحة فى المفرد خلوصه من تنافر الحروف ومن الغرابة ومن مخالفة القياس اللغوى " [2] .

وارتبط التنافر فى الكلمة غير الفصيحة بمخارج الحروف ارتباطاً وثيقاً ومن هنا سوف نبدأ ، فقد استقر البلاغيون على اشتراط خلوص الكلمة والكلام من التنافر حتى يصح وصفهما بالفصاحة ، لأن التنافر يؤدى إلى الثقل والثقل فى النطق لا تقبله النفس لأنه يجهد أعضاء النطق ولا يقع موقعاً حسناً فى الأذن " [3] .

ولقد أدرك ابن دريد أثر المخارج فى نطق الأصوات ومن ثم أثر تجاور الأصوات فى نطق الكلمة حيث يرى أن " أحسن الأبنية عندهم أن يبنوا بامتزاج الحروف المتباعدة " [4].

والسر الصوتى فى ذلك يوضحه لنا ابن دريد فى تحليل صوتى دقيق وذلك " أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت لأنك إذا استعملت اللسان فى حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة كلفته جرساً واحداً وحركات مختلفة ... وإذا تباعدت المخارج حسن وجه التأليف " [5] .

وانطلاقاً من هذا المبدأ رفض ابن دريد أى بناء يتكون من ثلاثة أحرف من مخرج واحد ، والذى يتكون من حرفين من مخرج واحد إلا أن يبدءوا بالأقوى منهما وفى ذلك يقول : " واعلم أنه لا

(1) مبادئ علم الأصوات العام ، أبر كرومبى ترجمة وتعليق د. محمد فتيح 253 .
(2) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى 185/1 .
(3) علم الفصاحة العربية د. محمد على رزق الخفاجى 211 .
(4) جمهرة اللغة لابن دريد 49/1 .
(5) جمهرة اللغة 46/1 .

يكاد يجئ فى الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة لصعوبة ذلك عليهم ... فأما حرفان فقد اجتمعا ... غير أن من شأنهم إذا أرادوا ذلك أن يبدءوا بالأقوى من الحرفين ويؤخروا الألين " [1] .

ولم يشترط ابن دريد للبدء بالأقوى أن يكون الحرفان المتقاربان فى بنية واحدة ، ولكن قد يجتمعان فى بنيتين متتاليتين ، فيقول : " ومما يدلك على أنهم لا يؤلفون الحروف المتقاربة المخارج أنه ربما لزمهم ذلك من كلمتين أو من حرف زائد فيحولون أحد الحرفين حتى يصّيروا الأقوى منهما مبتدأً على الكره منهم وربما فعلوا ذلك فى البناء الأصلى " [2] .

وقوله على الكره منهم هو نفس ما يقصده المعاصرون من أن التغير الصوتى " غير شعورى بمعنى أنه تلقائى غير متعمد ولا دخل فيه للإرادة الإنسانية " [3] وذلك يدل على أن البدء بالأقوى من الصوتين يكون اضطرارياً.

ولقد سبق الخليل بن أحمد إلى إدراك أثر التقارب المخرجى فى الثقل فى النطق أو فى إهمال أبنية معينه يدلنا على ذلك أنه من حين لآخر كلما قابلته بنية تكونت من صوتين متقاربين وجدها مهملة ، نشير إلى مثال لذلك : " العين مع هذه الحروف [ع ، هـ ، ح ، خ] مهملات " [4] .

كذلك قوله : " إن العين لا تأتلف مع الحاء فى كلمة واحدة لقرب مخرجيهما إلا أن يشتق فعل من جمع بين كلمتين مثل حىّ على ... " [5] .

وجاء فى سر الفصاحة قول الخليل : " إنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، و إذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده فى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال " [6] . والخليل يقرر هنا أن الثقل لا يكون فى القرب فحسب بل فى البعد أيضاً .

---

(1) جمهرة اللغة 46/1 .
(2) جمهرة اللغة 51/1 .
(3) التطور اللغوى مظاهره وعلله وقوانينه 20 .
(4) العين للخليل 68/1 .
(5) العين 67/1 .
(6) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى 91 .

كذلك ينقل ابن دريد نفسه قول الخليل : لولا بحّة فى الحاء لأشبهت العين ، فلذلك لم تأتلفا فى كلمة واحدة ، وكذلك الهاء ولكنهما يجتمعان فى كلمتين لكل واحدة منهما معنى على حدة نحو قولهم (حىّ هل ، وكقول الآخر (هيهاؤه) و (حيّهله) ، فحىّ كلمة معناها هلّم وهلا حثيثاً وفى الحديث : (حىّ هلا بعمر) ، وقال الخليل : سمعنا كلمة شنعاء (الهعخع) فأنكرنا تأليفها ، سئل أعرابى عن ناقته فقال تركتها ترعى ، فسألنا الثقات من علمائنا فأنكروا ذلك فقالوا نعرف الخعخع فهذا أقرب إلى التأليف "[1] .

ومن بعد الخليل جاء الجاحظ وتناول طريقة نسج الكلمة العربية وأنها تكون بطريقة معينة تجعل بعض الحروف تنسجم مع بعض الحروف الأخرى بينما هناك حروف لا تنسجم مع حروف أخرى ، بل لقد انتقل من الحروف داخل بنية الكلمة إلى الكلمات وعلاقتها ببعضها وأثر ذلك على تلاؤمها وتوافقها فيقول مثلا : " فأما اقتران الحروف فان الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير "[2].

وعن الكلمات المتجاورة يقول : " إذا كان الشعر مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مئونة " [3] .

وقال أيضا : " وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً فهو يجرى على اللسان كما يجرى على الدهان " [4] .

ومن هنا عدْ بعض الباحثين الجاحظ " أول من تنبه من البلاغيين إلى التنافر الذى ينشأ بين الحروف والألفاظ بصورة كاملة منظمة " [5] .

---

(1) الجمهرة 47/1 ، وانظر العين 61/1 - 62 ، سر الصناعة 2/ 246 .
(2) البيان والتبيين للجاحظ 6911 ، وانظر البحث اللغوى عند العرب د. أحمد مختار عمر 97 .
(3) البيان والتبيين للجاحظ 67/1 - 68 وانظر البحث اللغوى عند العرب 97 .
(4) البيان والتبيين 67/1 - 68 .
(5) علم الفصاحة العربية د. محمد على رزق الخفاجى 83 .

وإذا كان ابن دريد قد ذكر أن أحسن الأبنية ما تكون من حروف متباعدة المخارج فإنه قد اختلف فى ذلك عن الخليل الذى رأى أن البعد الشديد مستكره مثله مثل القرب الشديد تماما ، ولعل ابن دريد كان أكثر توفيقا من الخليل حيث وافقه اللاحقون والمحدثون .

وأورد السيوطى تعليق صاحب عروس الأفراح على ذلك بقوله : " قال الشيخ بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح : قالوا التنافر إما لتباعد الحروف جدا ، أو لتقاربها ، فإنها كالطفرة والمشى فى المقيد ، نقله الخفاجى فى سر الفصاحة عن الخليل بن أحمد ، وتعقبه بأن لنا ألفاظا حروفها متقاربة ولا تنافر فيها كلفظ الشجر والجيش والفم ، وقد يوجد البعد ولا تنافر كلفظ العلم والبعد ، ثم رأى الخفاجى أنه لا تنافر فى البعد وإن أفرط ، بل زاد فجعل تباعد مخارج الحروف شرطاً للفصاحة .

" قال الشيخ بهاء الدين : ويشبه استواء تقارب الحروف وتباعدها فى تحصيل التنافر استواء المثلين اللذين هما فى غاية الوفاق والضدين اللذين هما فى غاية الخلاف ، فى كون كل من الضدين والمثلين لا يجتمع مع الآخر ، فلا يجتمع المثلان لشدة تقاربها ، ولا الضدان لشدة تباعدهما ، وحيث دار الحال بين الحروف المتقاربة والمتباعدة فالمتباعدة أخف " [1] .

ولقد استحسن ابن دريد تضعيف الحرفين المتقاربين فى حرف واحد بعد الإبدال وذلك واضح فى قوله : " العين تتلو الحاء فى المدرج والارتفاع فلذلك قال قوم من العرب (محهم) يريدون (معهم) ، ..... وإذا أدغم قال (محم) "[2] .

وخلاصة ما سبق نجد ابن دريد قد ذكر ثلاثة أضرب للتأليف لكنه لم ينظمها علميا بل استنبطناها من ثنايا حديثه ، وهو ما رتبه لاحقوه من العلماء ونظموه بشكل علمى ، حيث يذكر ابن جنى أن " التأليف ثلاثة أضرب : أحدها تأليف الحروف المتباعدة ، وهو أحسنه وهو أغلب فى كلام العرب ، والثانى الحروف المتقاربة بتضعيف الحرف نفسه ، وهو ما يلى الأول فى الحسن ، والثالث

(1) المزهر للسيوطى 193/1 .
(2) جمهرة اللغة 1/ 44 .

الحروف المتقاربة ، فإما رفض وإما قل استعماله ، وإنما كان أقل من المتماثلين ، وإن كان فيهما ما فى المتقاربين وزيادة لأن المتماثلين يخفان بالإدغام ، ولذلك لما أرادت بنو تميم إسكان عين (معهم) كرهوا ذلك ، فأبدلوا الحرفين حائين ، وقالوا " مححم " فرأوا ذلك أسهل من الحرفين المتقاربين " [1] . ولقد نقل ابن سنان الخفاجى هذا التقسيم بتمامه فى سر الفصاحة [2] .

وربما دخل فى التضعيف وهو الضرب الثانى ما سماه الخليل الحكاية المضاعفة فى البناء الرباعى "و المضاعف فى البيان ما كان حرفا عجزه مثل حرفى صدره وذلك بناء يستحسنه العرب فيجوز فيه من تأليف الحروف جميع ما جاء من الصحيح والمعتل ومن الذلق والشفوية والصتم وينسب إلى الثنائى لأنه يضاعفه .... ويجوز فى الحكاية المضاعفة مالا يجوز فى غيرها من تأليف الحروف " [3].

هذا البناء استحسنه ابن دريد أيضا فى مثل قوله" أحسب أن قولهم رجل هفهاف إذا كان خفيفا وإنما كان أصله هفاف فثقل عليهم ففصلوا بينهما بهاء " [4] .

أيضا موافقته الخليل فى قبول بناء "الخعخع " ورفض "الهعخع" لأن " الأول أقرب إلى التأليف " [5] ، وقربه من التأليف لأنه وافق الحكاية المضاعفة .

ولقد وافق ابن دريد الخليل فى رفض "الهعخع " لاجتماع ثلاثة أحرف من جنس واحد عنده (هـ ، ع ، خ) فهو بناء مستثقل ولفظة شنعاء كذلك نجد ابن دريد قد رفض اجتماع حرفين متقاربين إلا عند البدء بالأقوى منهما مما يدل على كراهة ذلك أيضا .

وبذلك نجد ابن دريد قد أشار إلى قسمين لتنافر الحروف ، ذكرهما البلاغيون من بعده "حيث يرى البلاغيون أن التنافر قسمان : الأول تكون اللفظة بسببه متناهية فى الثقل والثانى يليه فى درجة الثقل "[6] .

---

(1) المزهر 1/ 194 .
(2) انظر : سر الفصاحة 48 .
(3) العين للخليل 1/62 - 61 .
(4) الاشتقاق لابن دريد 230 .
(5) جمهرة اللغة لابن دريد 1/47 .
(6) علم الفصاحة العربية ، د. محمد على رزق الخفاجى 212 .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن البلاغيين قد تأثروا فعلاً بما ذكره ابن دريد حيث ذكر ابن سنان قوله : " فلا يكاد يجئ فى كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة لحزونة ذلك على ألسنتهم وثقله " [1] .

ويلخص د. محمد على رزق الخفاجى " سبب الثقل أو التنافر فى كلمة " هعخع " فيما يلى :

1- تجاور مخارج أصوات الكلمة تجاوراً تاماً ويتمثل هذا التجاور فى تتابع تلك الأصوات التى التقت بدون فاصل بين المقطعين (هع – خع) فالانتقال من الصوت الساكن أو الصامت إلى صوت آخر بدون أن تفصل بينهما حركة قد سبب ثقلاً كبيراً ، كما أن الفواصل بالحركة القصيرة بين الهاء والعين وبين الخاء والعين ليست كافية كما أن تكرار العين قد زاد من الثقل .

2- يجمع بين هذه الأصوات المتجاورة أنها احتكاكية تحتاج إلى جهد أكبر مما لو كانت انفجارية .

3- نلاحظ أن أكثر أصوات الكلمة مهموسة والهمس يجهد أعضاء النطق أكثر من الجهر " [2] .

***

وبالرغم من ظهور تأثر ابن جنى بآراء ابن دريد فيما يخص هذا الباب فإن ابن جنى تميز بالدراسة العلمية المنظمة ، واستيعاب جميع ما قاله السابقون ، ثم تكوين نظرة خاصة أنبأت عن شخصية علمية متميزة .

ومن أمثلة ذلك استغلال ابن جنى لفكرة البدء بالأقوى عند ابن دريد وتوضيح أسرارها الصوتية بشكل أفضل من ابن دريد كذلك توضيح ابن جنى للسر فى تفضيل تباعد الحروف عن تقاربها فى التأليف بفكرة الألوان المتباينة و التى نقلها عنه ابن سنان الخفاجى فقال : " وعلة هذا واضحة وهى أن الحروف التى هى أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ، ولا شك فى أن الألوان المتباينة إذا اجتمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الأصفر "[3] .

---

(1) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى 48 .
(2) علم الفصاحة العربية ، د. محمد على رزق الخفاجى 216 .
(3) سر الفصاحة لابن سنان 64.

وتخصيص حروف الحلق دون بقية الحروف فى كراهة اجتماعها لم يكن جديدا عند ابن جنى فقد سبقه إلى ذلك ابن دريد ، يقول ابن جنى : " واعلم ان هذه الحروف كلما تباعدت فى التأليف كانت أحسن ، وإذا تقارب الحرفان فى مخرجيهما قبح اجتماعهما ولا سيما حروف الحلق ، ألا ترى إلى قلتها بحيث يكثر غيرها وذلك نحو الضغيغة و المهنه و القهه ، وليس هذا ونحوه فى كثرة حديد وسديد وشديد وصديد وعديد وخديد وقديد وكديد ولديد وديد .. "[1] .

ومن أمثلة ما سبقه فيه ابن دريد قوله : " اجتماع الهاء والعين فى كلمة واحدة قليل فى كلام العرب " [2] وقوله " الخيعل ثوب تخيطه المرأة .... وأصله من الخعل فثقل عليهم اجتماع الخاء والعين ففصلوا بينهما بالياء " [3] .

و لا يظن ظان أن ابن دريد لم يتعرض من قضايا الفصاحة إلا إلى أحوال التأليف ، وقضية التنافر فحسب ، فإذا كانت شروط الفصاحة هى : " الخلو من التنافر و من الغرابة ومن الكراهة فى السمع ومن كثرة عدد الحروف فى الكلمة الواحدة " [4] فإننا نرى أن ابن دريد قد أدركها جميعا .

أما عن إدراكه لعلاقة الفصاحة بعدد الحروف فى اللفظة المفردة فإنه اشترط فى الرباعى والخماسى واحداً أو أكثر من حروف الذلاقة ، ولم يشترط ذلك فى الثلاثى وهو ما قرره البلاغيون أيضا [5] ، وسبق التعرض لذلك .

وأما عن الغرابة فذكرنا كلمة " الهعخع " وسبب استثقالها عند ابن دريد والسر فى ذلك عند المعاصرين .

وعن الكراهة فى السمع ، فقد تعرض ابن دريد لها فى طيات حديثه فى الجمهرة ، نذكر مثالاً يوضح ذلك . قال ابن دريد : " رجل أعصج وهو الأصلع لغة شنعاء لقوم من أطراف اليمن لا يؤخذ

(1) سر صناعة الإعراب لابن جنى 75/1 .
(2) جمهرة اللغة 2/ 668 .
(3) جمهرة اللغة 612/1 .
(4) علم الفصاحة العربية ، د. محمد على رزق الخفاجى 211 .
(5) انظر : المزهر للسيوطى 198/1 .

بها)" [1] ، فى حين يذكر كلمة أخرى قريبة منها ويرى فيها غير ذلك فيقول : " رجل أصلج : أصم لغة فصيحة يتكلم بها بعض قيس " [2] .

والاختلاف بين أعصج وأصلج أنه فى الأولى يوجد صوت حلقى (ع) اجتمع مع صوت مطبق (الصاد) وآخر مزدوج - عند المعاصرين- (ج) أو شديد كما يراه القدماء ، وجميع حروف الكلمة مصمتة كل ذلك أدى إلى الثقل والجهد فى الكلمة أما اللفظة الثانية (أصلج) فوجود الصوت الذلقى اللام قد قطع الطريق أمام أى ثقل موجود فيها .

ومن أمثلة ذلك أيضا عند ابن دريد قوله " ودص إلى بكلام يدص ودصاً ... ليس بالعالى قال أبو بكر وهذا بناء مستنكر إلا أنهم قد تكلموا به " [3] .

ولم يذكر ابن دريد السر فى هذا الاستنكار إلا أن مقاييسه الصوتية توضح لنا ذلك فالدال و الصاد عند المعاصرين من مخرج واحد وهو الأسنانى اللثوى وطبقاً لقاعدة ابن دريد فى البدء بالأقوى كان من المفترض أن تتقدم الصاد على الدال ، حتى يحسن البناء ، وهو ما يوجد فى اللغة بشكل مقبول مثل " أوصد الباب " ، مما يضطر الناطق معه أن يحول الدال طبقاً لقانون المماثلة إلى مخرج الحرف الذى بعده ، من هنا كانت الكراهة فى السمع فى هذا البناء .

ونعرض هنا لأمور ذات علاقة بما سبق منها :

*** السر فى البدء بالأقوى :**

ذكرنا أن صاحب الجمهرة طرح فكرة البدء بالأقوى من الصوتين المتقاربين لكنه لم يوضح لنا السر فى ذلك ، ومن عادات العرب كما يوضح لنا سيبويه أنهم " كرهوا أن ينتقلوا من الأخف إلى الأثقل " [4] .

---

(1) جمهرة اللغة 479/1 .
(2) الجمهرة 1 / 479 .
(3) جمهرة اللغة 657/2 .
(4) الكتاب لسيبويه 4 / 114.

obeikandi.com

ويتلقف ابن جنى الفكرة ليعاملها بعبقريته الخاصة ويقدم لنا من خلال وجهة نظره السر ـ فى ذلك فيقول " وأنا أرى أنهم يقدمون الأقوى من المتقاربين من قبل أن جمع المتقاربين يثقل على النفس فلما اعتزموا النطق قدموا أقواهما لأمرين : أحدهما أن رتبة الأقوى أبداً أسبق وأعلى . والآخر إنما يقدمون الأثقل ويؤخرون الأخف من قبل أن المتكلم فى أول نطقه أقوى نفساً .... فقدم أثقل الحرفين"[1] .

*** الصوتان المتقاربان والقافية :**

أشار ابن دريد إلى ملاحظة جيدة تخص علاقة القربى بين الأصوات وما ينتج عنها ، فقد قبل أن يكون حرف الروى متقارباً مخرجاً مع الروى فى البيت التالى له ومن ذلك ما أورده من قول الراجز "

قُبّحت من سالفة ومن صُدُغْ

كأنها كشية ضب فى صقع

قال ابن دريد : جمع هذا الراجز بين العين والغين لقرب مخرجها منها ، فما يشا كل هذا قول الراجز :

إذا ركبْتُ فاجعلونى وسطا

إنى كبير لا أطيق العُنّدَا

فجمع بين الطاء والدال وقال آخر (رجز) :

هل تعرف الدار بذى أجراذ

دارٌ لهندٍ وابنتى معاذ

أزمان إذ نحن على أقياظ

فجمع بين الظاء والذال وقال آخر (رجز) :

ألا لها الويلُ على مبين

على مبين جَرَد القصيم

(1) الخصائص لابن جنى 1 / 55.

فجمع بين النون والميم " [1].

وبالرغم من قبول ابن دريد لهذا الرجز على ما فيه من تقارب الحرفين وعدم وحدتهما فإن جمهور العروضيين يرون ذلك عيباً فى القافية " فإذا لم يستطع الشاعر أن يجد الكلمة المناسبة للقافية فإنه قد يأتى أحياناً بصوت يقرب مخرجه من صوت الروى فى القصيدة وهذا هو الإكفاء وهو من عيوب القافية " [2].

لكننا نرى أن الشاعر عندما يأتى فى الروى بصوتين متقاربين مخرجاً فإن ذلك أفضل مما لو أتى بحرفين متباعدين . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التقارب المخرجى يبعد الخلل الموسيقى عن الأذن ، ومن ناحية ثالثة ربما نشأ ذلك عن غير شعور من الشاعر نظراً لتقارب المخرجين ومن ثم ترتبط هذه الظاهرة لدى الشاعر بالضرورة الشعرية .

ويؤيدنا أستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب حيث يقول " الضرورة الشعرية عند جمهور علماء العربية عبارة عن مخالفة المألوف من القواعد فى الشعر سواء ألجئ الشاعر إلى ذلك بالوزن والقافية أم لم يلجأ وهم بهذا التعريف يبعدون بالضرورة الشعرية عن معناها اللغوى وهو (الاضطرار) .مما يجعل قبول رأيهم هذا ضرباً من إلغاء التفكير المنطقى والتحكم بغير دليل أو برهان فإن الضرورة الشعرية فى نظرنا ليست فى كثير من الأحيان إلا أخطاء غير شعورية فى اللغة وخروجاً على النظام المألوف فى العربية شعرها ونثرها بدليل ورود الآلاف من الأمثلة الصحيحة فى الشعر والنثر على سواء ، غاية ما هنالك أن الشاعر يكون منهمكاً ومشغولاً بموسيقى شعره وأنغام قوافيه فيقع فى هذه الأخطاء عن غير شعور منه" [3] .

***

بين ابن دريد والمعاصرين :

لم نجد اعتراضات من جانب المعاصرين حول قضية الفصاحة وشروطها وما يتعلق بها ، بل أكد الدرس الصوتى الحديث جميع ما جاء به ابن دريد فى هذا الشأن .

(1) جمهرة اللغة 2/ 879 ، وانظر أيضاً 2 / 665- 666 و المقتضب للمبرد 1 / 218
(2) القافية والأصوات اللغوية ، د. محمد عونى عبد الرءوف 165 .
(3) فصول فى فقه العربية 162.

يقول فندريس : " فى كل لغة ترتبط الأصوات ببعضها ارتباطاً وثيقاً فهى تكون نظاماً متجانساً مغلقاً ، فتنسجم أجزاؤها فيما بينها هذه هى أول قاعدة من قواعد الصوتيات ، وهى ذات أهمية قصوى ، لأنها تثبت أن اللغة لا تتكون من أصوات منعزلة بل من نظام من الأصوات " [1] .

كذلك يقول د. محمد المبارك : " كان العرب يراعون فى اجتماع الحروف فى الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها فيها حدوث الانسجام الصوتى والتآلف الموسيقى " [2] .

لذلك فليس غريباً أن نجد لغتنا لغة القرآن نموذج الفصاحة والبلاغة " قد شاع فيه كل ما هو سهل النطق ندى الوقع وأهمل كل ما هو ثقيل النطق متنافر الأصوات " [3].

كذلك يقول د. أحمد كشك " إن التجاور الصوتى فى اللغة له ما يحكمه ولعل توزيع الكثرة والقلة فى الحكم على الصيغة وهو حكم إحصائى ينبنى على أساس من قابلية التجاور الصوتى بين حروف الكلمات وعلى توزيع أصواتها توزيعاً عادلاً من خلال خواصها فكثرة الكلمات تنتمى إلى الصيغ التى تتوزع حروفها على مخارج صوتية مختلفة لجنوحها إلى اليسر والسهولة ، وأقلها ما توزعت حروفه على مخرج واحد ، أو مخارج متقاربة فمن قبيل الكثرة الكلمات : علم – بدع – فعل – ملأ ، ومن قبيل القلة الكلمات : تبر – شذر – قلق – ضمد " [4].

أما عن الذى أشار إليه ابن دريد من القوة فى الصوت السابق من المتقاربين فهو مبدأ لا ينكره المعاصرون فعلى سبيل المثال صوت كالصاد عند المعاصرين " يمتاز بالصفير والإطباق ، ومعنى الصفير أنه أشد احتكاكاً بمخرجه عند صدوره ، فهو أكثر وضوحاً فى السمع فكان من العسير إحداث تأثير فيه ، إلا مع أخويه (السين والزاى) مع الاحتفاظ بالإطباق " [5].

---

(1) اللغة لفندريس 62 .
(2) خصائص العربية ومنهجها الأصيل فى التجديد د.محمد مبارك 17 .
(3) مستويات التحليل اللغوى د. محمد عبد المنعم عبد الله 100 .
(4) من وظائف الصوت اللغوى د. أحمد كشك 12 .
(5) أثر القراءات فى الأصوات والنحو العربى د.عبد الصبور شاهين 238 .

ومن هنا " صاغ اللغوى الفرنسى Maurice Grammont قانوناً سماه (قانون الأقوى) law of the stronger، وهو قانون حقق شهرة وملخصه أنه " حينما يؤثر صوت فى آخر فإن الأضعف (بموقعة فى المقطع أو بامتداده النطقى ...) هو الذى يكون عرضه للتأثر بالآخر " [1] .

ورأينا كيف أدرك ابن دريد ما قسمه البلاغيون من بعده من رتب الفصاحة (فصيح وأفصح) ومن ثم فهى دراسة لغوية بلاغية ، وليس من الحق أن يشار إلى رتب الفصاحة هذه بأنها من الأمور المتعلقة بالتاريخ أو السياسة حيث يقول د. أنيس فريحة : " إن قضية فصيح وغير فصيح لا تدخل فى نطاق علم اللغة بل ينظر إليها أنها مسألة تاريخية سياسية بحتة " [2] !! .

فإذا علمنا أن مدار الفصاحة لغة واصطلاحاً حول طلاقة اللسان ومن ثم فهى من أدخل الأمور فى نطاق علم اللغة فأين إذن علاقتها بالسياسة أو التاريخ " ؟! .

ومن الجدير بالذكر أن الثقل الذى يوجد فى لفظةٍ ما – كما ذكر ابن دريد – ينشأ عن التنافر بين أصواتها أو عدم وجود أصوات مستحسنة عند الحاجة لذلك ، ولا معنى لقول البعض : " التنافر يحدث بسبب الثقل " لذلك فإننا ندهش من قول أحد الباحثين : " وليس كل ثقل فى الكلمة مؤدياً إلى الحكم عليها بالتنافر " [3] !! .

ويزيد اندهاشنا كثر عندما نراه يربط الثقل الناتج عن الدلالة بالثقل الناتج عن الصوت .. حيث نرى أن السهولة فى النطق شىء والدلالة شىءٌ آخر حيث يقول معللاً قوله السابق :" إذ توجد كلمات فيها لون من الثقل وهى فصيحة بل يعد ثقلها من مظاهر فصاحتها لأنه يصور المعنى وينطق بالمراد ، وإذا تأملت كلمة " اثاقلتم " فى قوله تعالى﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ التوبة 9/ 38 ، نجد فيها قدراً من الثقل الفصيح [!!] لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلى الأرض واستشعارهم مشقة الجهاد ، وعزوف أرواحهم عنه بعد ما

(1) دراسة الصوت اللغوى د.أحمد مختار عمر 319 .
(2) اللهجات وأسلوب دراستها د. أنيس فريحة 65 .
(3) دراسات تحليلية للفصاحة والبلاغة والإسناد د. الشحات أبو ستيت 31 .

دعوا إليه ، وعلى هذا فالحكم على الكلمات بالتنافر يحتاج إلى بصر بالمفردات والأساليب وذوق خالص يميز المتلائم والمتنافر"[1] .

ونرى أنه بالرغم من ارتباط كلمة " اثاقلتم " بالثقل والركون فعلاً إلا أن الكلمة ليس فيها تنافر ولا ثقل كما يزعم الباحث السابق ، ولم يدر هذا الباحث أن الثقل الذى يشعر به فى الكلمة ليس صوتياً بل صرفياً ناتجاً عن الوزن المتغير (تفاعلتم) .

*** ودليلنا على خلو تلك الكلمة من الثقل ما يلى :**

تحتوى هذه اللفظة على سبعة أصوات منها :

- صوتان ذلقيان (ل ، م) وهما كفيلان لامتصاص أى ثقل موجود .
- صوتان خفيفان من أصوات (سألتمونيها) وهما(الفتحة الطويلة والتاء)

على اعتبار أن أول صوت فى الكلمة ألف وصل ، ولو وقفنا بدأنا بالهمزة وهى غير مكروهة فى الابتداء .

- بها أحد الحروف المستحسنة عند الخليل (القاف) .
- لم يبق معنا إلا (الثاء) المضعفة ، وهو وإن كان صعباً إلا أن وقوعه بين الأصوات السابقة قد أذهب ثقله – فكيف بنا بعد ذلك أن نزعم أن كلمة " اثاقلتم " بها ثقل فى النطق ؟! .

كذلك لست أدرى كيف يوصف الثقل بأنه فصيح ، والفصاحة مناقضة للثقل ؟ ، والأولى أن يوصف – عامةً إن صح الوصف – بأنه بليغ لتعلقه بالمعنى .

ودليلنا على أن الثقل الصوتى لا يرتبط بالدلالة أن هناك كلمات وأعلام لا ندرى ما دلالتها وإن كنا نستحسنها صوتياً ونستسيغها على ألسنتنا مثل : ميامى – نونو – لولو ... إلخ ، ومرجعنا فى هذا كله صفات الأصوات ومخارجها .

([1]) دراسات تحليلية للفصاحة والبلاغة والإسناد 32 .

obeikandi.com